مسار الدراسات اللغوية العربية القديمة

د.أحمد شكيب بكري أ.بشير حرشاية
المركز الجامعي صالحي أحمد، النعامة الجزائر المركز الجامعي صالحي أحمد، النعامة – الجزائر

الملخص_:

تعد اللغة العربية من أقدم اللغات التي بسطت نفوذها على رقعة متسعة من الأرض، وقد نشأت العربية بصورة محدودة في ألفاظها وتصرفاتها ، لأن مظاهر الحياة آنذاك كانت محدودة ، ولكن بدأت في التطور شيئا فشيئا خاصة بعد تنقل أفرادها من مكان إلى آخر، مما أدى إلى ابتكار لغوي جديد يعبر عن أغراض هذه الفئة فكثرت الألفاظ والتصريفات اللغوية وظهرت لهجات عربية في أماكن مختلفة ، وهذا ما جعل اللغة تدخل مرحلة متقدمة من النضج والكمال ، وخاصة القرآن الكريم الذي كان دافعا كبيرا للغة العربية ، والذي قام بتوجيهها وإصلاح واقعها والتخطيط لمستقبلها ، فاللغة العربية لغة حية متجددة ودائمة التواجد والتطور ، والتطور اللغوي ظاهرة طبيعية تلحق اللغات الحية، وتنبع من كون اللغة عامة ومؤسسة بشرية دائمة الحاجة إلى الأشكال ومواكبة التغيرات، وقد حظيت اللغة العربية بمن وقفوا عملهم في سبيل خدمتها ، وبذلوا غاية سعيهم في تقعيد تراكيبها وأحوالها،وقد خلفت لنا جهود هؤلاء تراثا لغويا لا مثيل له عند الأمم الأخرى، فقد شغلت الدراسات اللغوية القديمة مكانة شهد لها الجميع من العرب والغرب .

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، اللهجات العربية، القرآن الكريم.

Abstract:

The Arabic language is one of the oldest languages that extended its influence over a wide area of land. Arabism developed in a limited manner in its words and actions, because the manifestations of life were limited, but gradually began to develop, especially after the movement of its members from one place to another. This language has entered an advanced stage of maturity and perfection, especially the Holy Quran, which was a great motivation for the Arabic language, which guided and reformed reality and planning for its future, the Arabic language Vivid living And its permanent presence.

Development and linguistic development is a natural phenomenon that afflicts living languages. It stems from the fact that the language is a general and a permanent human institution, the need for forms and keeping pace with the changes. The Arabic language has been stopped by the Arabic language in order to serve them, and they have endeavored to upgrade their structures and conditions. Unlike any of the other nations, ancient linguistic studies occupied a place that was witnessed by all Arabs and the West.

Keywords: The Arabic language, Arabic dialects, Holy Quran.

المنارة للاستشارات

مقدمة:

اهتم عدد من الباحثين العرب بعلوم اللغة منذ بداية الحركة العلمية في إطار الدولة الإسلامية ، فكانت لهم جهود في مجالات الأصوات وبناء الكلمة والجملة والمفردات ، وكان المنشغلون بعلوم اللغة يصنفون إلى مجموعتين ، الأولى : تهتم ببنية اللغة والثانية تهتم بمفردات اللغة ودلالاتها ، الأولى سميت بالنحو أو علم العربية ، أما الثانية فأطلق عليها اسم " اللغة " أو علم اللغة

أو فقه اللغة ، ولكل من هذه المصطلحات تاريخ مستقل، ووجدت محاولات لوصف علوم اللغة مجتمعة فسميت " علم اللسان "أو علوم اللسان العربي " أو علوم الأدب أو العلوم العربية .

نشأة الدراسة اللغوية العربية :لم يؤثر عن العرب أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام[1] ، ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم ، مثل اليونان والرومان التي عرفت دراسات لغوية راسخة قبل الإسلام ، فكان اهتمامهم بالعلوم الشرعية وحين فرغوا منها اتجهوا إلى العلوم الأخرى .

يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء معبرا عن الفكرة :" إنه منذ منتصف القرن الثاني الهجري بدأ علماء المسلمين يسجلون الحديث النبوي، ويؤلفون في الفقه الإسلامي، والتفسير القرآني ، وبعد أن تمّ تدوين هذه العلوم اتجه العلماء وجهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو"[2].

ويقول أحمد أمين : " أكثر اللغة كتبت في العصر العباسي الأول لا قبله " .

من هذين القولين يتبيّن لنا أن المسلمين حافظوا على علومهم بتدوينها وخاصة العلوم الشرعية ، وكان الدافع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، كما أنهم حاولوا الاهتمام بتدوين العلوم اللغوية كالنحو واللغة .

المنارة للاستشارات

والدراسات اللغوية التي وجدت في القرن الأول الهجري، كانت مجرد محاولات وتأملات لدراسة اللغة ، وكان سببها العامل الإسلامي ، ومنها محاولة ابن عباس المتمثلة في جمع الألفاظ الغريبة في القرآن وشرحها تحت عنوان " غريب القرآن "، وكذا محاولة أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف بالشكل .

تاريخ العربية :

لقد اختلف الدارسون في تحديد تاريخ نشأة اللغة العربية فمنهم من يحدّدها بتاريخ أول نقش عثر عليه ، وهناك من يحددها بأوّل نص شعري جاهلي .

ولكن لا يمكن معرفة نوع هذه العربية ، هل هي الموجودة في النصوص الجاهلية ، وذلك للظهور اللغوي والفكري الواسع الذي يفصل بين تلك وهذه[3].

فاللغة العربية استخدمت في الجزيرة العربية قبل الإسلام مستخدمة في الشعر والخطب والأمثال استخداما موحّدا بين شعراء القبائل المختلفة وخطبائها ، رغم الفروق اللغوية والخلافات اللهجية ، وسبب ذلك هو طبيعة الشعر وقيود تفعيلاته وقوافيه ، لذا بقيت لغة الشعر لغة فنية يقصدها معظم العرب قصدا[4].

والعرب في الجاهلية كانوا يعربون كلامهم رفعا ونصبا وجرا وجزما ، وذلك بالسليقة التي فطروا عليها منذ نشأتهم في بيئة فصيحة سليمة البيان ، يقول أبو بكر الزبيدي : " ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من إسلامها تبرع في نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة حتى فتحت المدائن ، ومصرت الأمصار، ودوّنت الدواوين"[5]، ويذهب إلى هذا الرأي ابن جني في كتابه الخصائص[6].

وما يمكن استخلاصه من هذا القول أنّ العربي كان سليقيا بالفطرة ، فتركيبه للجمل تركيبا صحيحا ، رغم أنه لا يعرف الفعل والفاعل والمفعول به .

المنارة للاستشارات

وحتى اللهجات أثرت في الجانب الصوتي من حيث الكلمات التي تنطقه القبائل العربية، فكل فرد ينطق بلسان قبيلته وقومه ولسانه مطبوع على ذلك ، وجاء في بعض المصادر أن لغة هذه القبائل كانت الفصحى ، سواء كان ذلك في خطبهم أو أمثالهم

أو نصائحهم ومواعظهم ، وهذا ما يؤكده قول ابن الأثير : " فكان اللسان العربي عندهم صحيحا محروسا، لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل، إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم ...فاختلط الفرق ، وامتزجت الألسن"[7] .

من خلال هذا القول يتأكد لنا مدى حرص العربي على سلامة لغته من اللحن ويعمل كل ما في وسعه بغية عدم الوقوع في الزلل ، والانحراف عن قواعد اللغة السليمة .

وهذا لا يعني أن لغتهم كانت عالية ، فهي على حسب المقام ، فهناك لغة الشعر والخطب والأمثال أي لغة الأدب ، وأخرى لغة المحادثة أو اللغة الدارجة ، وهي تدخل في الكلام اليومي والتفاهم ، والتي تدور بينهم في اجتماعاتهم ومعاملاتهم ، وما يتصل بها، لأن القصد في مثل هذه اللغة ليس البلاغة والبيان العالي ورقة الكلام ، وإنما الخصائص التي يهدف إليها الشعر والخطب وأمثالها[8].

وقد حرص العرب على إقامة الأسواق في شبه الجزيرة العربية ليشهدوا فيها منافع، وشاع في التاريخ العربي أن سوق " عكاظ " كان من أهم الأسواق العربية قبل الإسلام، حيث شهد حركة تجارية وثقافية ودينية ، إذ كانت

هذه الأسواق مركز التقاء التجار والشعراء وغيرهم من العرب والعجم[9] .

ويرى كثير من علمائنا الأقدمين أن الفصاحة في عرب الجاهلية ليست على منزلة واحدة، فهناك تفاوت بينها فالقبائل التي تسكن في أوسط الجزيرة العربية تعد أفصح القبائل ، منها قبائل الحجاز ، وكنانة ، وهذيل ، وعطفان، وهوزان ، وسليم ، و طيء، وتميم ،

المنارة للاستشارات

وأسد، وقيس ، يقول الفارابي : " الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : فيس وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين"[10].

فأخذ اللغة لم يكن من أية قبيلة ، بل كان هناك حسن الاختيار والرجوع إلى مكانة القبيلة من حيث علو الفصاحة ، ودور المنطقة الجغرافية في تحديد عملية الأخذ ، وكان لهذه القبائل دور في تزويد آخذي قواعد اللغة العربية من الأصل .

اللحن

اختلف الدارسون في وقوع اللّحن في الجاهلية ، فهناك من يرى أنه وقع ، ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكن الأغلبية اتفقوا على وقوع شيء قليل منه ، لأنهم يعدون اللّحن من الأمور التي تناقض الفصاحة ، ويعملون على توجيه هذا اللّحن فيسمونه لغة شاذة أو نادرة ، وقد ظهر كثيرا في لغات القبائل التي كانت تسكن في أطراف الجزيرة العربية[11].

وكان المقصود من اللّحن ممّا نقل أبو عبيد عن أبي زيد وغيره بمعنى : لحن الرجل يلحن لحنا ، إذا تكلّم بلغته ، ولحنت له لحنا ، إذا قلت له قولا لا يفقهه عنك ويخفى على غيره ، ولحنه عنّي لحنا أي فهمه ، ولحن الرجل إذا أخطأ في الإعراب[12].

ويحدد ظهور اللّحن بحدود الإسلام أو بعده بقليل يقول أبو بكر الزبيدي : "فاختلط العربي بالنبطي، والتقى الحجازي بالفارسي ودخل الدين أخلاط الأمم، وسواقط البلدان فوقع الخلل في الكلام ، وبدأ اللحن في السنة العوام"[13].

من هذا القول يتبادر إلينا أن اللحن ظهر عند اختلاط العرب بالأعاجم مثل النبطيين والفارسيين ، فالأمم بدأت تدخل في هذا الدين الجديد ، وما يدل على أن اللحن وقع ، الرواية التي رويت ومفادها أنّ وفدا جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم –يعلن إسلامه، فلما قام

المنارة للاستشارات

خطيبهم بين يديه يتكلم لحن في كلامه ، فظهر ذلك في وجه الرسول –صلى الله عليه وسلم –وقال للوفد :" أرشدوا أخاكم فقد ضلّ"[14].

من قول الرسول –صلى الله عليه وسلم –نستنتج أن الضلالة التي كان يقصدها الرسول –صلى الله عليه وسلم –ضلالة نحوية وليست شرعية ، وهو عليه الصلاة والسلام أفصح العرب .

كما وردت أخبار تشير أن اللحن وقع في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ذكر أنه مرّ على قوم يتدربون على الرمي ، فاستقبح رميهم فقالوا له :" إنّا قوم متعلمين " وعرف اللحن في الكتابة والرسائل ،وفي كتاب أبي موسى الأشعري، إذ كتب كاتبه " من أبو موسى إلى الخليفة الثاني عمر .....فردّ عمر الكتاب ووقّع في أسفله اقسم عليك إلاّ ما قنعت كاتبك سوطا ، فلما جاء إلى كاتبه وسأل عن خطئه فيه قيل :" هو ما جاء في عنوانه، فأصلح عنوانه ،وأرسله إلى الخليفة عمر فقبله"[15] .

كان يقصد العنوان " من أبو موسى " والأصح " من أبي موسى " ومن هذا النص ندرك أن العرب يحاولون دائما معرفة الخطأ ويصحّحونه بمجرد معرفته ، وبدأ اللّحن ينتشر وينتقل إلى أطراف الجزيرة العربية ، وخاصة مواطن ضعف الألسنة العربية ،وهذا بعد دخول الأعاجم في الإسلام ، وسكنوا في المدن الإسلامية وخاصة البصرة ويذكر أن أول لحن ظهر بالأمصار قولهم : " حي على الصلاة " و " هذه عصاتي" ، فالأعاجم بطبيعتهم لا يعرفون العربية وأخذوا يتعلمون هذه الصناعة فانتشر الفساد اللغوي على نطاق واسع[16].

كما ظهر اللحن في الألسنة بتسكين أواخر الكلم هربا من الإعراب[17] ، وبدأ يتسرب إلى القرآن الكريم وهذا ما حفّز أبو الأسود الدؤلي إلى وضع النحو ، خاصة بعد سماعه قارئا يقرأ القرآن في قوله تعالى ((**أَنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ**))[18] بالكسر فقال : حشا لله أن يبرأ من رسوله ، ما كنت أحسب أنّ أمر النّاس صار إلى هذا .

المنارة للاستشارات

وقد زاد اللحن إلى درجة أنه ظهر على لسان ابنة أبي الأسود الدؤلي ، وهي التي نشأت في بيت الفصاحة ، وقصة قولها " مَا أَشَد الحَرُ " بضم الدال للاستفهام وهي تريد فتحها للتعجّب[19].

كما نشير أن هذه المؤشرات السابقة أدت إلى ظهور العامية التي تعد لغة التخاطب بين عامة الناس ، وكانت في أول ظهورها أقرب إلى الفصحى ، ثم أخذت تبتعد بالتدريج عمّا كانت عليه في أول الأمر ، ومن أهم مقومات هذه اللغة :

–اللحن في الألفاظ : وهو ما يتعلق بالنحو أي الخطأ في الإعراب ، وبنية الكلمة ، وكذا الخطأ في الأسماء وضبطها ضبطا صحيحا[20].

–تسكين أواخر الكلمة :آثروا تسكين أواخر الكلمة هروبا من إعرابها[21] .

–الاختصار في الجمل : وذلك بالقيام بعملية النحت مثل البسملة .

–دخول ألفاظ أعجمية في الاستعمال ، هذه الألفاظ المستعملة منقولة عن أصلها الأعجمي أو محرفة ، وقد

دخلت من لغات أعجمية أخرى[22] .

ومن الخطوات التي أخذت من أجل المحافظة على اللغة العربية وتحصين القرآن الكريم من اللحن والخطأ ما يلي:

نقط الإعجام والإعراب:

للحفاظ على لغة التنزيل رأى المسلمون حتمية صون القرآن الكريم من اللّحن وذلك بالضبط، فقام زياد بن أبيه وكان يومئذ واليا على العراق بالقيام بهذه المهمة ، فطلب من أبي الأسود الدؤلي ت69هـ ، أن يعمل على ضبط القرآن الكريم ، فاعتذر أبو الأسود في

المنارة للاستشارات

أول الأمر لما كان بينه وبين زياد من خلاف، ثم وافق على القيام بما عهد إليه ، فوضع نقطه الإعرابي للقرآن الكريم متخذا لذلك كاتبا فطنا حاذقا من بني عبد القيس وقال له : " إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممت شفتي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت شفتي فاجعل النقطة من تحت الحرف ، فإن اتبعت شيئا من ذلك غنّة فاجعل مكان النقطة نقطتين ، وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ تخالف لونه لون المداد الذي كتبت به الآيات[23]، وسمي هذا العمل رسم العربية .

وقد شارك تلاميذ أبي الأسود الدؤلي وهم نصر بن عاصم ، وعبد الرحمان بن هرمز ،ويحي بن يعمر ،وعنبسة الفيل ،وميمون الأقرع ، فهؤلاء نقطوا المصحف و أخذ عنهم النقط وحفظ وضبط وقيّد وعمل به ، واتبع في سنتهم واقتدي فيه بمذاهبهم[24] .

وجاء في بعض المصادر أن يحي بن يعمر ت69هـ ونصر بن عاصم ت 89هـ هما أول من نقطا للناس بالبصرة

وظهرت مشكلة جديدة للمسلمين خاصة من غير العرب متمثلة في عدم التمييز بين الحروف المتشابهة في الرسم ، ذلك لأن السليقة لم تعد تسعف القارئ في التمييز بين الحروف المعجمة والمهملة ، فتكلف الحجاج بن يوسف الثقفي بهذه المهمة ، حيث طلب من نصر بن عاصم أن يعمل على حل هذا الإشكال[25] ،فوضع نقطا جديدا على حروف المصحف لكي يميز بين الحروف المتشابهة في الرسم ، وسمي هذا العمل بنقط الإعجام، ومن خلال نقط أبي الأسود المسمى " النقط الإعرابي " والنقط الإعجامي المنسوب إلى نصر بن عاصم استطاع المسلمون أن يحصّنوا القرآن الكريم من اللحن والخطأ ،وبعد هذا جاء الخليل ت175هـ ، فطوّر نقط أبي الأسود ، وذلك بتغييره إلى علامات أكثر دقة ودلالة ، حيث جعل للفتح ألفا ممالة فوق الحرف ، وللضم واوا صغيرة فوق الحرف ، وللكسر ياءا صغيرة تحت الحرف ، وللتشديد شينا صغيرة ، وللتخفيف خاءا صغيرة أيضا[26].

المنارة للاستشارات

وقد نسب للخليل كتابا خاصا في النقط وعلله وأحكامه ، ووجدت كتب أخرى منها ما وصل إلينا ومنها من لم يصل إلينا ، وقيل أن النقط والشكل كانا معروفين لدى غير العرب من الساميين وغير الساميين ، فاللغة اليونانية القديمة عرفت الشكل في الحروف[27].

وكما يلاحظ أن هذه الأمم أبدعت النقط على الحروف لغرض المحافظة على الكتاب المقدس الخاص بكل أمة من تلك الأمم السابقة، وهو الدافع نفسه الذي جعل العرب المسلمون يجعلونه محافظة على كتاب الله عز و جلّ.

وما يمكن استنتاجه أن خطوة النقط سواء كان نقط الإعراب أو الإعجام ساعدت كثيرا في المحافظة على القرآن الكريم من اللّحن ، بحيث أصبحت الحروف سهلة النطق ومعلومة الحركة الإعرابية .

وضع النحو وضوابط العربية

في هذا الشأن يقول ابن سلام الجمحي ت232هـ :" كان أوّل من أسّس العربية وفتح بابها،وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي ...وكان رجل أهل البصرة ، وكان علويّ الرّأي ....وإنّما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة النّاس يلحنون ، ووجوه النّاس ، ووضع باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، وحروف الرّفع والنصب والجرّ والجزم"[28].

من هذا القول يتبيّن لنا أن النحو كان من المحاولات الأولى لمواجهة النحو، رغم السليقة التي يتمتّع بها العربي ، لكن لم تكن سليقة نحوية المعروفة بقواعدها ، ومن شهادة ابن سلام، يعد أبو الأسود الدؤلي أوّل من وضع اللبنات الأولى للنحو، بالرغم من أنّه لم يصرّح بلفظ النحو في هذا النص.

المنارة للاستشارات

ولكن أبو الطيب اللغوي يصرّح بلفظ النحو في قوله :" واعلم أنّ ما اختل من كلام العرب، فأحوج إلى التعلّم الإعراب ، لأن اللّحن ظهر كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي –صلى الله عليه وسلم – فقد روينا أنّ رجلا لحن بحضرته فقال :" أرشدوا أخاكم فقد ضلّ"[29] .

من هذا النص نستنتج أن اللحن ظهر في كلام فئات مختلفة منها الموالي والمتعربين ، وحتى في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم –كان اللحن موجودا والرواية التي ذكر فيها القوم الذين جاؤوا إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم –يعلنون إسلامهم –لكن ربّما في ذلك الوقت لم يظهر منه إلاّ القليل ، وكان التنبيه من الرسول –صلى الله عليه وسلم –في قوله "أرشدوا أخاكم فقد ضل " ، وكان اللحن في الجانب الصوتي الذي لفظه الرجل .

بعدما تبين لنا أسباب وضع النحو وهي واضحة ومنطقية إلى حد بعيد ، ولا تحتاج إلى تفصيل ، ولكن السؤال المتضارب فيه هو : من أوّل من وضع النحو العربي ؟.

فهناك من يرى أنه أبو الأسود الدؤلي ، وفريق آخر يرى أنه علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، وروايات أخرى ذكرت فيها أسماء أخرى .

وفي هذا العنصر نورد روايتين على سبيل المثال لا الحصر تؤكد أول من له الفضل في وضع النحو العربي .

أوّلا :روى السيوطي أن أبا الأسود الدؤلي قال : " دخلت على علي بن أبي طالب فرأيته مطرقا متفكّرا ، فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنّي سمعت ببلدكم هذا لحنا ، فأردت أن أصنع كتابا في أصول العربية ، فقلت : إن فعلت هذا أحييتنا ، وبقيت فينا هذه اللغة ، ثم أتيته بعد ثلاث ، فألقى إليّ صحيفة فيها " بسم الله الرحمان الرحيم ، الكلام كلّه : اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل " ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك ،

المنارة للاستشارات

واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة :ظاهر ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ومضمر ، وإنما تتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر ، قال أبو الأسود فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها : إنّ وأنّ وليت ولعلّ وكأن ، ولم أذكر" لكن " فقال لي: لم تركتها ؟ فقلت لم أحسبها منها فقال: بل هي منها فزدها فيها"[30].

من خلال هذا النص يمكن أن ننسب وضع النحو العربي إلى علي بن أبي طالب لأنه كان على اتساع علمي كبير ، وما يؤكد ذلك شرحه لأبي الأسود قواعد الأساسية للكلم من الاسم والفعل والحرف ، وإعطائه تعريفات بقيت معتمدة حتى في عصرنا هذا ، وخاصة عندما ذكر له أبو الأسود حروف النصب ، ونسي هذا الأخير "لكن " ممّا يوحي أن عليا صاحب الإيعاز بوضع النحو وأبو الأسود هو المنفّذ .

وما يمكن إضافته أن هناك طرفين لهما الفضل في وضع اللبنات الأولى للنحو العربي، بغض النظر عن الواضع الحقيقي للنحو .

ثانيا :

يروى أن أبا الأسود الدؤلي دخل إلى ابنته بالبصرة فقالت له :" يا أبت ما أشدُّ الحرّ" رفعت " أشدّ " فظنّها تسأله وتستفهم منه: أي زمان الحر أشد ؟ فقال لها : شهر ناجر ، يريد شهر صفر ، الجاهلية كانت تسمي شهور السنة بهذه الأسماء ، فقالت : يا أبت : إنما أخبرتك ولم أسألك ، فأتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال : يا أمير المؤمنين: ذهبت لغة العرب ، لمّا خالطت العجم ، وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحلّ ، فقال له : وما ذلك ؟ فأخبره خبر ابنته ، فأمره فاشترى صحفا بدرهم ، وأملى عليه : الكلام كلّه لا

المنارة للاستشارات

يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وهذا القول أوّل كتاب سيبويه ، ثم رسم أصول النحو كله ، فنقلها النحويون وفرّعوها"[31].

في هذا النص يتبين لنا أن أبو الأسود الدؤلي له دور في وضع النحو، خاصة وأنه سمع اللحن من ابنته في بادئ الأمر ، ولو لم يكن يعلم بقواعد النحو كيف له أن يدرك خطأ ابنته في كلمة " أشد " ،إذن ذهابه إلى الإمام علي ليقترح عليه الفكرة أي وضع شيء يحمي اللغة العربية ، فوجد الفكرة سابقة عند علي ، الذي له علم مسبق بقواعد النحو ، إذن خلاصة الكلام أن أبا الأسود وضع ضوابط نحوية أولية بإشارة من الإمام علي ، وكل الروايات الموجودة في المصادر القديمة تؤكد نسبة وضع النحو لأبي الأسود الدؤلي .

الرواية

يقصد بها جمع المادة اللغوية من أفواه العرب الفصحاء بالذهاب إليهم في بواديهم أو الالتقاء بهم في الحواضر، وعلى هذا الأساس فإنها لم تبدأ قبل نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ، وما يقصد به الرواية اللغوية، وما قام به أبي الأسود وتلاميذه من روّاد الدرس اللغوي ، وهناك دوافع شجّعت على الرواية منها التفسير اللغوي للقرآن الكريم، وكذلك ما كان يفعله ابن عباس عند تفسيره ألفاظ القرآن من استشهاد بالشعر[32] ، وكذلك ما فعله عبد الله بن مسعود[33] ، ووظفت الرواية اللغوية في تفسير الحديث فاعتبروا من اللغة متواترا وأجادا ومرسلا ومنقطعا وإفرادا ، وكان الاعتزاز باللغة وصيانتها من اللحن الدافع إلى توظيف الرواية كانت الحاجة العلمية لوضع الضوابط النحوية بعد أن أصبح الدرس اللغوي علما قائما بذاته .

وقد مرّ جمع اللغة بثلاث مراحل هي :

المرحلة الأولى : رحلة اللغويين إلى البادية وسماعهم للعرب وإقامتهم بينهم مدة معينة، ثم العودة إلى مواطن الدرس اللغوي في الحواضر لعرض المادة اللغوية التي جمعوها من

المنارة للاستشارات

الأعراب وإشاعتها في المجالس ، وتعد مدينة البصرة والكوفة مواطن الرواية وهما السباقتين إليها ، وبعد هجرة العلماء إلى بغداد استفادت هذه الأخيرة من تراث هؤلاء اللغويون الأوائل الذين رحلوا إلى البادية فصد جمع اللغة ومنهم : ابن أبي إسحاق الحضرمي ت117هـ وتلميذاه عيسى بن عمر ت149هـ وأبو عمرو بن العلاء ت154هـ والخليل ت175هـ ويونس 182هـ ، والكسائي 189هـ ، والنضر بن شميل ت203هـ ، و أبو عمرو الشيباني 206هـ ، والفرّاء 207هـ، وأبو زيد الأنصاري ت215هـ، وابن الأعرابي 231هـ ، ومن أهم القبائل التي جمعت منها اللغة هي تميم وقيس وأسد و طيء وهذيل .

المرحلة الثانية : هي رحلة معاكسة بحيث يقوم بها الأعراب الفصحاء بعد انتقالهم من البادية إلى الحضر ومواطن حلقات العلم ، منها البصرة والكوفة وبغداد ، فأصبح هؤلاء يقصدون مجالس العلم وحلقات الدرس[34]،حيث يقول الأصمعي ت213هـ:"جئت إلى عمرو بن أبي العلاء فقال لي : " من أين أقبلت يا أصمعي ؟ قلت : جئت من المربد،قال :هات ما معك :فقرأت عليه ما كتبته في ألواحي[35]. ويقول أبو عبيدة ت210هـ :" قدم علينا رجال من بادية جعفر بن جعفر بن كلاب ،فكنّا نأتيهم فنكتب عنهم"[36].

من النص الأول والثاني يتبين لنا أن العرب كانت لهم نيّة حسنة وإقبال على طلب العلم ، وتزويد أهل الحضر بما لديهم من لغة يمتلكونها على طريق السليقة ، وشهد لهم من كانوا في عصرهم ، أو الذين جاؤوا من بعدهم ، ولو تتبعنا عمل هؤلاء لوجدناهم من الرواة أو ممّن روي عنهم ، بمعنى أخذ وعطاء .

وكان هناك تبادل بين رواة البصرة والكوفة فيما بينهم ، فمثلا المفضل الضبي كوفي أخذ عنه البصريون ، يقول أبن سلام الجمحي أنه " اعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة[37] المفضل أستاذ الكسائي ، وابن الأعرابي أستاذ ثعلب[38].

المنارة للاستشارات

المرحلة الثالثة : تمثلت الرواية عن من روي عن الأعراب مباشرة ، وهذا ما توفر في أغلب تلاميذ أولئك الأوائل من الدارسين الذين رحلوا إلى البوادي وأخذوا عن أعراب المربد والكناسة في البصرة والكوفة[39].

وما نخلص إليه في هذا العنصر هو أنّ هؤلاء الرواة سواء الذين كانوا في البادية أو الذين انتقلوا إلى الحضر قاموا بعمل كبير في جمع اللغة ، واستفاد من عملهم هذا الكثير من المتعلمين ، ولهم فضل كبير في المحافظة على اللغة العربية والقرآن الكريم وحتى الذين جاؤوا من بعدهم لم ينطلقوا من فراغ ، وإنّما وجدوا قبلهم إرثا ثمينا ساعدهم وسهّل لهم الطريق لإبداعات ودراسات جديدة أعطتهم مكانة مرموقة في الدرس اللساني العربي .

ويمكن أن نجمل الأعمال التي قام بها هؤلاء اللغويون مع اختلاط الدراسات اللغوية مع بعضها البعض ،خاصة في اللغة والنحو والصرف ، وكانت بداياتها مع ابن عباس الذي عني بالغريب وبالشعر واستعان بهما في عمله في تفسير القرآن الكريم حتى ذكر له كتاب " غريب القرآن " .

-أبو الأسود الدؤلي الذي نقط القرآن ،أكمل بإعجامه علي يد نصر بن عاصم ، وختمه الخليل بالشكل ، كما كانت هناك حركة لغوية أخذت في النمو والتطور عمادها رواية اللغة مفردات واستعمالات وأساليب مستعينة برواية الشعر وقراءات القرآن ، ولهجات العرب .

-يحي بن يعمر : شارك نصر بن عاصم في إعجام حروف القرآن على بعض الروايات[40] .

وأخذ عن أبي الأسود نقط القرآن[41]، وأضاف إلى الضوابط النحوية شيئا من بابي الفاعل والمفعول ، وقيل أنه أوّل من وضع النحو بعد أبي الأسود ، وروي أنه أوّل من وضع العربية، يقول الزبيدي :" تعلّم عن أبي الأسود ، ثم يحي بن يعمر العدواني وكان حليف

المنارة للاستشارات

بني ليث ، فصيحا عالما بالغريب"[42] ، وقال يحي نفسه :" وإنما نفي فيما استتر من معاني الشعر وأشكل من غريبه"[43] .

من هذين النصين نستنتج أن يحي بن يعمر كان له عمل كبير وبارز من خلال أخذه بعض الضوابط من أبي الأسود مثل نقط القرآن ، واجتهد بإضافة بعض القواعد كباب الفاعل والمفعول على حسب ما جاء في الرواية السابقة .

وجاء دور عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وهو من الذين أكملوا ما جاء به أبو الأسود الدؤلي من وضع الضوابط النحوية حيث قيل : " كان أوّل من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل"[44]، وله في ذلك آراء ونظرات، ولم يؤثر عنه كتاب في النحو

و لكنه وضع كتابا في الهمز يقول أبو الطيب اللغوي "فرّع عبد الله بن أبي إسحاق النحو، وقام وتكلّم في الهمز، حتى عمل فيه كتابا مما أملاه ، والظاهر أنه يبحث في الهمز من ناحية علاقته بالقراءة ، إذ هو من القراء ، وله قراءة شاذة"[45].

–أبو عمرو بن العلاء : اشتهر بالقراءة ،ويعد من القراء السبعة ، وعني بالغريب واللغات والشعر والرواية يقول الجاحظ : " كان أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس ،وهو إلى جانب ذلك من المعنيين بالنحو وله فيه آراء منقولة[46].

–أبو الخطاب الأخفش الكبير 157هـ له في اللغة والرواية والغريب ، وقد أخذ عنه يونس وسيبويه اللغات[47] .

–الخليل 175هـ تلميذ عيسى اهتم بالرواية والمشافهة ودرس اللغة ،ووضع معجم العين واهتم بالنحو ، وأنشأ علم العروض وبرع في القراءة ، وهو من وضع شكل القرآن بالحركات وله في التصريف آراء كثيرة .

المنارة للاستشارات

-يونس 182هـ اشتهر باللغة والغريب ،وألّف كتابا في اللغات ، نقل عنه سيبويه في الكتاب شواهد لغوية كثيرة، اشتهر بالنحو وقيل فيه :"كانت ليونس مذاهب تفرد بها ، فقد رويت عنه آراء نحوية خالف بها البصريين وخالفه فيها الكوفيون"[48].

-سيبويه 180هـ :اشتهر بالنحو أكثر من اشتهاره باللغة والغريب والرواية والشعر والقراءة، فقد تضمن كتابه النحو واللغة والصرف.

-أبو جعفر الرؤاسي 187هـ:درس النحو ودرّسه ووضع فيه كتاب " الفيصل "[49] .

-الكسائي 189هـ : اهتم بالقراءة فهو من القراء السبعة، وله كتاب في القراءات[50]،ومختصر النحو وهو رأس مدرسة الكوفة .

-معاذ الهرّاء 190هـ : اهتم بالصرف أكثر اهتمامه باللغة والنحو ، يرى السيوطي أنه واضع علم الصرف .

الخاتمة

من خلال هذه المحاولات التمهيدية إن صحّ القول التي قام بها هؤلاء النحويون واللغويون، كلّ على حسب اختصاصه ، فمنهم من اشتهر بالنحو ومنهم من اشتهر باللغة، وآخرون برعوا في القراءات وغيرها ، نستنتج أنهم قاموا بعمل جبّار، ولا أحد ينكر ما قاموا به خاصة سيبويه ، الذي وضع كتابه المشهور " الكتاب " فيه زاد من العلم والمعرفة، سهّل للكثيرين عملية البحث في الدراسات التي جاءت من بعد، ولو نتتبع الآراء التي جاءت بعدهم نجدها استمرارا لما جاؤوا به ، وإن وجدت إضافات فلم تكن على تباين لما أسّسوه أولئك العلماء من نحويين ولغويين ، ولا تزال أعمالهم شاهدة لهم إلى حد الآن ، ومازالت كتبهم تعد مصادر هامة في عملية البحث لجميع الاختصاصات وخاصة اللغوية .

الهوامش:

المنارة للاستشارات

1علم اللغة نشأته وتطوّره ، محمود جاد الرب ، ص 26.
2-تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، ص 117.
3-دراسات في فقه اللغة ، صبحي صالح ، ص 55.
4-تاريخ اللغات السامية ، اسرائيل ولفنسون ، ص206.
5- لحن العوام ، الزبيدي، ص4.
6- الخصائص ، ابن جني ، ص 71/1.
7- النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير ، ص4.
8-التطور اللغوي التاريخي ، إبراهيم السامرائي، ص28.
9- مقدمة لأصول النحو العربي ، أحمد جلايلي ، ص71.
10-الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، ص32.
11- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، ص34.
12-مغني اللبيب ، ابن هشام، ص286.
13-لحن العوام ، الزبيدي، ص4.
14-لمع الأدلة ، السيوطي ، ص26.
15-الأضداد ، الأنباري ، ص224.
16-الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، ص37.
17-فقه اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، ص132.
18-سورة التوبة ، الآية 3.
19-أخبار النحويين البصريين، السيرافي ، ص19.
20-البيان والتبيين ، الجاحظ ، ص161/1
21- فقه اللغة ، ص133.
22-البيان و التبيين ، ص141-144.
23-المحكم في نقط المصاحف ، ص3.
24- المحكم في نقط المصاحف ، ص6.
25-شرح ما يقع في التصحيف والتحريف ، الحسن بن سعيد العسكري ، ص10.
26-يراجع: المحكم في نقط المصاحف ، ص7.
27-يراجع : البحث اللغوي عند العرب ،أحمد مختار عمر، ص44.
28-طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، ص 12/1.
29-مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي ، ص19.
30-الأخبار المروية في سبب وضع علم العربية ، السيوطي ، ص34-36.
31-الأخبار المروية في سبب وضع علم العربية ، ص40-43.
32-يراجع:الجامع لأحكام القرآن ، ص 1/24.

المنارة للاستشارات

33-يراجع : تفسير الطبري ، ص1/175.
34-الفهرست ، ابن النديم ، ص 70.
35-ذيل الأمالي والنوادر ، أبو علي القالي ، ص182.
36-جمهرة أشعار العرب ، ص31.
37-أنباه الرواة ، القفطي ، ص 2/55.
38-معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ص 2/11.
39-الأضداد ، ابن الأنباري ، ص30.
40-التصحيف والتحريف ، ص10.
41-المحكم في نقط المصاحف ، ص6.
42-طبقات النحويين واللغويين ، ص23.
43-أنباه الرواة ، ص2/107.
44-طبقات فحول الشعراء ، ص 14.
45-الفهرست ، ابن النديم، ص 33.
46-الخصائص ، ص 3/13.
47-الفهرست ، ص 57.
48-الكتاب ، سيبويه ، ص1/429.
49-نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، الأنباري ، ص54.
50-الفهرست ، ص72.

المنارة للاستشارات